مجلة دراسات وأبحاث

المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

Dirassat & Abhath

The Arabic Journal of Human and Social Sciences

ISSN: 1112-9751

إشكالية أصوات المدّ في اللغة العربية

وتجلياتها في الدرس الصوتي الحديث

فاطمة لصار

المركز الجامعي بتيسمسيلت

إشكالية أصوات المدّ في اللغة العربية

وتجلياتها في الدرس الصوتي الحديث

فاطمة لصار

المركز الجامعي بتيسمسيلت

ملخص البحث:

ترتكز الكتابة الصوتية التي أقام عليها الخليل مبادئ نظريته في علم العروض على الصورة النطقية للغة، وقد أعاد المحدثون إحياء هذا النوع من الكتابة في الدرس الصوتي، لكنّهم اعتبروا المدود حركات طويلة على خلاف ما أقرّه القدامى الذين تعاملوا مع المدود على أنها حروف سواكن.

ويتناول هذا البحث كلا الرأيين بالدراسة والتحليل، من خلال التطرق إلى المبررات التي اعتمدوها في تحليل طبيعة المدود، خصوصا رأي المحدثين الذين أدرجوا المدود في مجال الصوائت دونما بحث صوتي يرتكز على منجزات التطوّر المادي الذي تعرفه مخابر دراسة الصوت، ويخلص البحث في النهاية إلى ترجيح الرأي الذي ينسجم وطبيعة اللغة العربية.

Abstract

The phonetic writing which « Al Khalil Ibn Ahmad » built on his theoretical principles in prosody focuses on the articulation sounds of the language, and modernists revitalised this kind of the writing in the phonetic lesson, but they considered vowels long movements unlike what the ancient people proclaimed who dealt with vowels as silent letters.

This research takes both the two opinions in the study and the analysis, through the reference to the justifications which they depended in analysis of vowel's nature, especially the opinion of modernists who inserted vowels in the domain of vowels, without a phonetic research that focuses on the achievements of the material development which known by the phonetics laboratories. The research summarizes eventually to preponderance of the opinion in agreement with the Arabic language nature.

الكلمات المفتاحية: صوت؛ مدّ؛ صامت؛ صائت؛ طبيعة؛ كميّة.

مقدمة : تعامل المحدثون في حقل الدرس الصوتي مع أصوات المدّ بطريقة مغايرة لما أقرّه أهل اللغة في تراثنا اللغوي، وذلك باعتبارها حركات تدرج ضمن الصوائت، والكتابة الصوتية عند المحدثين تقرّ بذلك؛ حيث يرمز لحروف المدّ برمز دال على أنّها حركة رغم أنّها اعتبرت حروفا عند القدامى وإذا مثلنا لذلك بمقاطع صوتية لبنية لغوية ملفوظة تحوي حرف مدّ كفعل " قال" مثلا، فستكون صورتها الصوتية على الشكل التالي: قَا / لَ، وإذا رمزنا للحرف بالرمز "ص" على أنّه صامت وللحركة بالرمز "ح"، فسوف يكون التشكيل الصوتي لهذا الملفوظ على الصورة التالية: ص ح ح / ص ح باعتبار القاف واللام صامتين، وصوت المدّ حركة طويلة والفتحة حركة قصيرة .

ونحن نعلم أنّ الكتابة الصوتية التي ترتكز على النطق ارتكازا مباشرا ضاربة بجذورها في تراثنا اللغوي، حيث أقام عليها الخليل نظريته في علم العروض المُؤَسَس على قواعد صوتية بحتة أخضعت لها الكتابة العروضية التي تعبر عن إيقاع البيت الشعري ووزنه، ولو اعتبرنا الفعل " قال " جزءا من بنية بيت شعري وأردنا أن نكتبه كتابة عروضية فسوف نركز لا محال على المتوالية النطقية الضابطة لنظام الحركات والسواكن؛ حيث نصل إلى سلسلة من الرموز على النحو التالي: /0/ " حركة، سكون، حركة "، ولو أجرينا مقارنة بسيطة بين الكتابة الصوتية المعتمدة عند المحدثين وبين ما أقرّه الخليل فسوف نجد الفرق بيّنا بينهما، فالخليل يعتبر حرف المدّ حرفا ساكنا والمحدثون يلغون حرفيته ويعتبرونه حركة، وإذا أخذنا برأي المحدثين واعتبرنا هذه الأصوات حركات فسوف نلغي بالضرورة مبدأ هامّا يميّز المدود في مختلف حقول الدرس اللغوي يتمثل في اعتبارها حروفا ساكنة؛ إذ أهل النحو لم يعتبروها حركات بل تعاملوا معها على أنّها سواكن ولا تظهر عليها الحركات الإعرابية بل تقدّر تقديرا، وقد أقرّ أهل الصرف بذلك عندما اعتبروا حروف المدّ فروعا وليست أصولا في البنية الصرفية، إذن فالمبدأ الثابت الذي أقرّه تراثنا اللغوي هو اعتبار أصوات المدّ حروفا لا حركات، وهي حروف سواكن، فهل لهذا المبدأ أسسه العلمية الموضوعية التي يقرّها منهج البحث العلمي؟ وهل إدراج المحدثين لهذه المجموعة من الأصوات في مجال الصوائت مبرَّرٌ علميًا؟ هل هذا التوجّه في التعامل مع أصوات المدّ عند المحدثين ثمرة من ثمار التأثر بالدرس اللساني الحديث ونتيجة بحث صوتي جادّ يرتكز على منجزات التطوّر المادي الذي تعرفه مخابر دراسة الصوت، أم هو صورةٌ من صور التقليد غير المبرّر الذي لا يتكيّف وطبيعة لغتنا العربية؟

شكّلت هذه الأسئلة أرضية للبحث في طبيعة هذه الأصوات وكيفية تناولها عند القدامى والمحدثين الذين يطمحون لتطعيم البحث الصوتي بمنجزات الدرس اللساني، وإذا شرعنا في تحليل طبيعة هذه الأصوات انطلاقا من التراث نجد الخليل قد أفرد لهذه الأصوات مخرجا هو مخرج الجوف، وجعل حروف العربية تسعة وعشرين حرفا «منها خمسة وعشرون حرفا صحاحا لها أحياز ومدارج، وأربعة أحرف جُوفٍ وهي: الواو والياء والألف اللينة والهمزة، وسميت جوفا لأنّها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق، ولا من مدرج اللهاة، إنّما هي هاوية في

الهواء، فلم يكن لها حيّز تنسب إليه إلا الجوف، وكان يقول كثيرا: الألف اللينة والواو والياء هوائية، أي أنّها في الهواء»[1].

يؤكد هذا القول اعتبار الخليل أصوات المدّ حروفا، رغم إقراره باختلافها عن بقية الحروف في كيفية انتاجها، فهي غير خاضعة في نطقها لمخرج محقق؛ لأنّ الهواء المنبعث من التجويف الرئوي إلى التجويفين الحلقي والفموي – أثناء النطق بها – لا يعترضه عارض والجوف هو مصدر إنتاجها بآلية تختلف عن آلية إنتاج بقية الصوامت في اللغة العربية، وهذا ما يفسّر إدراجها في مجموعة مستقلة عن بقية الصوامت اصطلح عليها بحروف المدّ واللين، فهي لينة طيّعة تنساب انسيابا مع الهواء المتدفق من الجوف ممّا يكسبها خاصية المطّ والتطويل.

لكنّ سيبويه أسقط مخرج الجوف، وألحق هذه الأصوات بالواو والياء غير المديتين والهمزة «فأقصاها مخرجا الهمزة والهاء والألف... ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء... وممّا بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو»[2]، فلماذا هذا الاختلاف بين التلميذ وأستاذه؟ وما مبرر إلغاء مخرج الجوف عند سيبويه؟ وهل هو تكييف ذكيّ لخصوصية هذه الأصوات وطبيعة المخرج في منهج التحليل الصوتي؟

إذا دققنا النظر في طبيعة المخرج المنتج للصوت نجده يتوفر على ميزة هامّة تتمثل في اعتباره مصدّا لهواء الزفير، وقد اعتبر الخليل الجوف مخرجا رغم أنّه يفتقد هذه الميزة الهامّة، وهذا ما يفسّر إلحاحه على أنّ أصوات المدّ حروف لين هوائية[3]، وهو توصيف دقيق للمدود دالّ على حريتها وانطلاقها مع مجرى الهواء المنبعث من الرئتين دون أي مصدّ يعترض الهواء أثناء النطق بها، ومنه فمخرج الجوف استثناء في مخارج الحروف؛ لأنّه ينتج هذه الأصوات بطريقة مغايرة، لكنّ خصوصيته لا تعني البتة إلغاء وظيفته في إنتاج حروف لها خصوصيتها أيضا وهي حروف المدّ، ولا يمكن إلحاقها أبدا بالواو والياء غير المديتين والهمزة؛ لأنّه لا يمكن تقبل مبدأ التوافق – على سبيل المثال – في كيفية إنتاج ألف مديّة في فعل " سال" وهمزة في فعل "سأل"، وهل إنتاج الواو في " وَعَدَ" يوافق إنتاج الواو في "عُودٌ"؟ وهل إنتاج الياء في " يَد" له نفس الخصوصية في إنتاج الياء في "عَبِيد"؟ ومنه فسيبويه أراد أن يسدّ ثغرة في مخرج الجوف، لكنّ إلغاءه لهذا المخرج وإلحاقه المدود بمخارج أخرى وسّع هذه الثغرة وعمّقها.

أمّا ابن جني فقد فصّل الحديث في طبيعة أصوات المدّ، مدققا النظر في خصوصيتها؛ حيث وجد «الحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف ثمّ الياء، ثمّ الواو، وأوسعها وألينها الألف»[4]

وابن جني يقرّ أيضا بأنّ أصوات المدّ حروف لا حركات، ويقول في شأن الحركات وعلاقتها بحروف المدّ: «اعلم أنّ الحركات أبعاض حروف المدّ واللين وهي الألف والياء والواو، فكما أنّ هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث وهي الفتحة والكسرة والضمّة فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة...»[5]

يؤكد طرح ابن جني عكس ما يقول به المحدثون، فالحركات القصيرة (الصوائت القصيرة) عنده

فرع عن الحرف، فعندما ننطق الحرف المتحرك" بَ، بُ، بِ " فقد نطقنا صامت الباء المفتوحة مع ألف صغيرة في آن واحد، وفي حال الضمّ نطقناه مع واو صغيرة، وفي حال الكسر نطقناها مع ياء صغيرة، ومنه فصِغَرُ الألف والواو والياء يعبّر عن كمية الصوت في نطق الحركات ؛ لأنّها تستغرق زمنا قصيرا في النطق ولا يمكن أن تستقل بذاتها بل هي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالصامت الذي حركته، وقد وصّف ابن جني أصوات المدّ توصيفا دقيقا في ثلاث كلمات:« حروف نوامٌّ كواملُ »[6]، فأصوات المدّ عنده حروف لا حركات وهي قابلة للمطّ والتطويل والزيادة في كمية الصوت، وهذا ما تدل عليه صفتا نوامٌّ و كوامل.

ويسترسل في شرح طبيعة المدود وكيفية انتاجها قائلا: «الصوت الذي يجري في الألف مخالف للصوت الذي يجري في الياء والواو، والصوت الذي يجري في الياء مخالف للصوت الذي يجري في الألف والواو، والعلّة في ذلك أنّك تجد الفم والحلق في ثلاث أحوال مختلف الأشكال... فلمّا اختلفت أشكال الحلق والفم والشفتين مع هذه الأحرف الثلاثة اختلف الصدى المنبعث من الصدور، وذلك قولك في الألف أاْ، وفي الياء إيْ، وفي الواو أُوْ»[7].

ومنه فضبط ابن جني لكيفية نطقها بالشكل " أاْ، إيْ، أوْ" دليل قوي على أنّها حروف سواكن، وقد فرّق بينها في حالة سكونها وعند تحريكها ملحقا إيّاها بمجموعة الحروف الصحاح إذا حركت «فالياء والواو لمّا تحركتا قويتا بالحركة فلحقتا بالحروف الصحاح »[8]. وبهذا الطرح يمكن إلحاق المدود في حال تحريكها بالهمزة، والواو والياء غير المديتين.

والحرف المتحرّك عنده على ثلاثة أضرب: «مفتوح ومكسور ومضموم، فالمفتوح هو إذا أشبعت حركته حدثت عنها ألف... والمكسور هو الذي إذا أشبعت حركته حدثت عنها ياء... والمضموم هو الذي إذا أشبعت حركته حدثت عنها واو... إلا أنّ هذه الأحرف اللائي يحدثن لإشباع الحركات لا يكنّ إلّا سواكن، لأنّهن مدّات والمدّات لا يتحركن أبدا»[9].

حكم قطعي على لسان ابن جني يؤكد أنّ أصوات المدّ حروف سواكن ناتجة عن إشباع الحركات، والإشباع يعني الزيادة في كمية الحركة القصيرة من الناحية الزمنية لإنتاج الصوت، وهذه الزيادة لا تعني أبدا – في عرف القدامى – اعتبار المدود حركات طويلة.

وإذا بحثنا في أراء المحدثين وتحليلهم لخصوصية هذه الأصوات نجد أغلبهم اتفقوا –خاصة في مجال الدرس الصوتي – على أنّ هذه الأصوات حركات طويلة، فما الخلفية الفكرية التي فرضت هذه القناعة؟ وما مبرراتها؟

وفي هذا الصدد يقول الدكتور كمال بشر: «في البدء شغلنا أنفسنا في هذا الفصل بذكر شيء عن مصطلحات العرب في القديم التي استخدموها في هذا المجال حيث قصروا مصطلح "الحركات " على ما نعرفه الآن بالفتحة والكسرة والضمّة (الحركات القصار)، أمّا الطوال فهي جروف المدّ عندهم، واخترنا إطلاق مصطلح "الحركات" على القبيلين لاشتراكهما في الصفات والسمات الأساسية التي تفرق بينهما وبين الأصوات الصامتة »[10].

يؤسس هذا القول لإخراج أصوات المدّ من دائرة الحروف وإلحاقها بالحركات وذلك بجعلها حركات

طويلة، فالحركات عند كمال بشر ست «ثلاث قصار وثلاث طوال »[11].

وقد اعتبر الصوامت أصولا والحركات مع أصوات المدّ فروعا مؤكدا على أنّ الأصل يرسم في صلب الكلمة كتابة، أمّا الفرع فتابع للصامت وهذا ما يفسّر – على حدّ قوله –إبعاد الحركة عن صلب الكلمة في الرسم الكتابي، أمّا عن أصوات المدّ فيقول: «وإن كنّا لا ننكر أصلية حروف المدّ وفرعية الحركات القصار من حيث الرموز والعلاقات التي تشير إلى الفئتين، ولكنّ هذا في الكتابة فقط، وهو ما صنعه الخليل بن أحمد »[12].

يقسّم كمال بشر في هذا القول الأصوات إلى أصلية وهي الصوامت وفرعية وهي الصوائت القصيرة (الحركات) والصوائت الطويلة (المدود)، مؤكدا أنّ الأصل يمثل لبنة أساسية في بناء اللفظ فهو جزء من صلبها في صورتها المكتوبة، أمّا الفرع فمبعد عن صلبها، وهذا ما يفسّر – على حدّ قوله – إبعاد رسم الحركات عن صلب الكلمة لكنّه اصطدم بواقع الكتابة الذي يعتمد رسم المدود في صلب الكلمة وهذا يتعارض والمبدأ الذي أسس له، وقد برّر هذا التعارض بقصور الكتابة و قصور ما صنعه الخليل، وكأنّ الخليل كان عاجزا على وضع رموز تبعد المدود عن صلب الكلمة كتابة؛ لأنّه لم يجد لها رسما يساعده في ذلك، فهل يمكن اعتبار هذا التبرير وسيلة منهجية لها ضوابطها العلمية في تحليل نظام الكتابة في اللغة العربية؟

ويطالعنا الدكتور " غالب فاضل المطلبي" في كتابه " في الأصوات اللغوية – دراسة في أصوات المدّ العربية –"بنفس الطرح، حيث قسّم أصوات المدّ إلى (قصيرة، طويلة، نصف مدّ)، ورمز لها بالرموز التالية:[13]

- a – صوت المدّ القصير : الفتحة.
- à – صوت المدّ الطويل : الألف.
- I – صوت المدّ القصير : الكسرة.
- I – صوت المدّ الطويل : الياء.
- u – صوت المدّ القصير: الضمّة.
- u – صوت المدّ الطويل : الواو.
- e– صوت الإمالة القصير.
- é – صوت الإمالة الطويل.
- o – صوت التفخيم القصير.
- y – نصف المد ّ: الياء.
- w – نصف المدّ : الواو.

لو وقفنا قليلا عند هذه الرموز نجد أنّها تحمل تناقضا لا يمكنه أن يعيننا في تحليل أصوات المدّ تحليلا علميا موضوعيا، ومن جملة هذه المتناقضات الجمع بين المدّ والقصر عندما وظّف مصطلح " المدّ القصير" للدلالة على الحركات القصيرة (الفتحة والضمّة والكسرة) ومرجع ذلك حرصه على ربط الحركات بالمدود فكيف يمكن توصيفها بالقصر والمدّ في آن واحد؟

و إذا دققنا النظر في الرموز التي اختارها للتعبير عن أصوات تتميّز بها اللغة العربية نجدها رموزا لاتينية مأخوذة من أصوات اللغة الإنجليزية، فالرمز "a " مثلا اتخذه دليلا على الفتحة التي تشبه إلى حدّ بعيد صوت الألف المدية لكنّ كميّتها الصوتية قصيرة، لكنّ هذا الرمز اللاتيني يتخذ الكثير من الصور الصوتية في اللغة الإنجليزية، ففي مثل كلمات " apple – animal - able" ينطق هذا الرمز بصيغ مختلفة فكيف نجعله دالا على صوت واحد في اللغة العربية؟

وقد اعتمد في تحليله لطبيعة أصوات المدّ على مبدأين هما: الكتابة ومبدأ التغيّر، فأصوات المدّ

بوجه عام «هي التي تؤلف نظام المتغيرات في البنية اللغوية العربية، فإذا كان الجذر شيئا ثابتا أو جامدا static فإنّ هذه المتغيرات هي التي تجعله مطاوعا للتحقق والاستعمال والانتقال من حال صرفية إلى أخرى »[14].

وقد علّل سبب عدم إلحاق الحركات القصيرة بصلب الكلمة في كتابة اللغة السامية ومنها اللغة العربية بالتغيّر لأنّ «منطلق نظام الشكل يرجع إلى أنّ مصلحي نظم الكتابات السامية قد نظروا إلى أصوات المدّ القصيرة على أنّها أصوات زائدة متغيّرة لا يمكن أن تكون من عناصر جذر الكلمة»[15].

وإذا أخذنا بهذا الطرح، فكيف نبرر إلحاق أصوات المدّ بصلب الكلمة كتابة رغم أنّها – على حدّ قوله – ليست من أصول الكلمة، فهو يؤكد أنّها حركات وتؤلف نظام المتغيرات في البنية اللغوية[16] .

ومنه نستنتج أنّ مبدأ التغير لا يعدّ مؤشرا موضوعيا لتفسير سبب إبعاد الحركات عن صلب الكلمة في الكتابة العربية، لكننا لو دققنا النظر في أصوات اللغة وتدبرنا كيفية نطقها نجدها تشكل متوالية نطقية تفسّر اعتماد مبدأ الخطيّة في الكتابة، فإذا نطق متكلم بكلمة " كَتَبَ" مثلا فسوف ينطقها في شكل مقاطع صوتية متوالية، يمكن تمثيلها خطيا بالرسم التالي: كَ ـ تَ ـ بَ، فالتاء تلت الكاف و الباء تلت التاء مشكلين بذلك ملفوظا هو " كَتَبَ "، أمّا عن وصل هذه الأصوات رغم أنّها تشكل ثلاثة مقاطع صوتية منفصلة في النطق فسببه أنّ الملفوظ لا هوية له إذا كانت مقاطعه منفصلة، ومنه فالكلمة لا تنطق كتلة واحدة لكنّها تكتب كذلك لضبط معاني الكلم، وما يفسّر إبعاد الحركات القصيرة عن صلب الكلمة في نظام الكتابة هو مبدأ التوالي النطقي لا مبدأ التغير ، فهي لا تعدّ جزءا من المتوالية النطقية بل هي مرتبطة ارتباطا مباشرا بالصامت الذي أكسبها الوجود، فالفتحة الأولى في كلمة " كَتَبَ " جزء من نطق الكاف، والفتحة الثانية جزء من نطق التاء والفتحة الثالثة جزء من نطق الباء، ومنه فالحركات القصيرة تولد مع صوامتها فإذا وضعناها في صلب الكلمة فكأننا وضعنا فاصلا زمنيا بين نطق الصامت ونطق حركته، وهذا ما يفسّر رسمها فوق الصامت أو تحته لا بمحاذاته، وهذا ما عناه ابن جني بقوله: « إنّ الحركة إذا كانت بعضا للحرف، فالحرف كلّ لها »[17].

وقال هنري فليش في سياق حديثه عن الصوائت: «الحروف ما كانت لأن تنطق، وأنّ أعضاء النطق لا يمكن أن تتحرك إلا بفضل هذا الصوت المعيّن الذي يصحبها »[18] ، والمصاحبة في قوله تأكيد على فكرة أنّ الحركة تولد مع الحرف وهي جزء من كيانه، فلا يمكن أن تليه في الرسم الكتابي، وهذا ما يؤكد دقة الكتابة العربية.

و قد بنى الدكتور "عبد الصبور شاهين " منهجه في تحليل أصوات المدّ – في كتابه " المنهج الصوتي للبنية العربية رؤية جديدة في الصرف العربي" – على نفس المبدأ مؤكدا في إهدائه على أنّ أفكار الكتاب كانت حلما يراود أستاذه "إبراهيم أنيس" الذي كان يطمح إلى توسيع دائرة تحديث الدرس اللغوي اعتمادا على مكتسبات الدرس الصوتي الحديث[17]، وانطلق من مبدأ اعتبار المدود حركات طويلة قصد التأسيس لمنهجه الحداثي الذي يستمد أدواته من مكتسبات الدرس الصوتي ويعملها في الدرسين النحوي والصرفي ، فأصوات المدّ عنده « في أحوالها الثلاثة (الألف

والـواو والياء فـي مثـل: قـال – يقـول – يبيـع) حركـات طويلـة مهمـا يكـن موقعهـا فهـذا اعتبـار صوتي خالص »[19].

واسترسل فـي شرح تصـوره لأصـوات المـدّ مؤكـدا «أنّ الصـوت الصـامت (السـاكن) يتحـرك حينـا بحركة قصيرة ترسم برموز إضافية فوقه أو تحته، ويتحـرك حينـا آخـر بحركـة طويلـة تأخـذ صـورة (الألف والواو والياء)»[20].

ولـو مثلنـا لـذلك بلفـظ (عَصَـا) فبنيتهـا الصـوتية تتكـون مـن صـامتين همـا " العين، والصـاد " وقـد حرّك صامت العين بحركة قصيرة وصامت الصاد بحركـة طويلـة، ويمكـن تمثيلهـا بـالرموز الصـوتية التالية: عَصَا ـ ص ح / ص ح ح.

و من هذا المنظور يمضـي عبد الصبور شـاهين في تحليل بنية الفعل المعتّل مؤكدا أنّه فعل ثنائي البنيـة وحرف العلّـة إذا كـان صوت مدّ فهو حركة وليس حرفا، وقد تعامل مع الفعل الناقص بأسلوب يرتكز على مبدأ إلغاء الإعراب التقديري الذي قال به النحويون القدامى، فهو يرى أنّ علامة جزم هذا الفعل تتمثل في قصر الحركة الطويلة[21]، فمثلا في قولنا: " لَمْ يَسْعَ " الفعل " سعى" – على حدّ قوله – ثنـائي البنيـة يتكـون مـن (صـامت السـين + حركة قصيرة " الفتحة " + صامت العين + حركة طويلـة " الألـف ") وعلامـة جـزم هـذا الفعـل لـيس حذف حرف العلة بل الحركة الطويلة تمّ قصرها و تقليص كميتها الصوتية عن طريق الجزم فتحولت إلـى فتحـة، وإذا ناقشـنا طرحـه فسـوف نصـطدم بالكثير من الإشكالات التي توسّع الهوة بين التراث و الحداثة وتحدث القطيعة بين الدرسين الصرفي والنحوي في تراثنا و بين منجزات الدرس الصوتي الحديث، فلو اعتبرنا الفعل الناقص ثنائي البنية و صـوت المـدّ حركـة طويلـة، فـنحن نثبـت الجـرّ للأفعال في مثل قولنا: (نجرِي، ونمشِي)، وكيف نتعامل مع الضمائر التي توافق أصوات المدّ نطقا فـي مثل: (كتابي ، اكتبي، شجّعني) إذا اعتبرناها حركات طويلة؟ وهل هذا المنهج يعكس حقا مبادئا رسّخها إبراهيم أنيس في نفوس تلاميذه وعقولهم؟

يتضح لنا منهج إبراهيم أنيس في تحليله لطبيعة المدود من خلال تعليقه على قول ابن جني الذي يقـول فيـه : " اعلـم أنّ الحركـات أبعـاضٌ لحـروف المـدّ... لأنّهـن مـدّات والمـدّات لا يحـركن أبـدا"[21] فهو يرى أنّ « بعض القدماء قد أحسّ كما يحسّ المحـدثون بـأنّ الفـرق بـين الفتحـة و مـا يسـمّى بـالألف اللينـة لا يعـدو أن يكـون فرقـا فـي الكميـة وكـذلك الفـرق بـين اليـاء والـواو اللينتـين إذا قورنتـا علـى الترتيـب بالكسرة و الضـمّة ليس إلا فرقـا فـي الكميـة، فمـا يسّمى بـالألف اللينـة هـي فـي الحقيقـة فتحـة طويلـة، ومـا يسـمّى باليـاء اللينـة ليسـت إلا كسرة طويلـة، وكـذلك الـواو اللينـة تعدّ مـن النـاحية الصوتية ضمّة طويلة »[22].

وهذا الطرح لا يعنـي البتـة اعتبـار المدود حركـات طويلــة، لأنّ إبــراهيم أنــيس لــم يوصّــفها بهــذا التوصـيف بـل جعلهـا تابعـة للحركـة السـابقة لهـا، فـالألف ليسـت حركـة فـي حدّ ذاتهـا بـل هـي مـدّ لحركـة الفتحـة قبلهـا، والـواو مدّ للضـمّة، والياء مدّ للكسرة، والمدّ للفتحة والضمة والكسرة لا يعني أبدا اعتبـار المـدود حركـات، بـل هـي تطويـل للحركـة الموجودة أصلا قبل المدّ وهذا ما يفسّر تأكيد ابن جني على أنّها سواكن لا يتحركن أبدا[23].

يتضح لنا أنّ ابراهيم أنيس أقام تحليله لطبيعة المدّ فـي اللغـة علـى مبـدأ صـوتي هـام يتمثـل فـي مبـدأ كميـة الصـوت، فالبعضـية عنـد ابـن جنـي يربطهـا

ابراهيم أنيس بكمية الصوت، ومنه فإبراهيم أنيس يقيم حدودا فاصلة بين طبيعة الصوت وكميته، لأنّ اعتباره الألف فتحة طويلة، والواو ضمّة طويلة، والياء كسرة طويلة لا يعني إلغاء صفة أصيلة في حروف المدّ تتمثل في اعتبارها حروفا لا حركات وهي حروف سواكن لا متحركة.

وقد خلص في نهاية تحليله لطبيعة هذه الأصوات إلى أنّ الأصوات في اللغة العربية يمكن تقسيمها إلى: «أصوات ساكنة، وأصوات لين (قصيرة وطويلة) وأنصاف أصوات اللين وهي (الياء المتحركة والواو المتحركة)»[24].

يعكس هذا التقسيم ضبطا دقيقا لطبيعة أصوات اللغة العربية عند إبراهيم أنيس، فالأصوات الساكنة تعني الصوامت وهي حروف الأبجدية، وأصوات اللين القصيرة ويعني بها الحركات، والطويلة ويقصد بها حروف المدّ الثلاثة، أمّا عن أنصاف أصوات اللين فهي الواو والياء وهو اصطلاح دقيق لم يجمع متناقضين في مثل المدّ القصير[25] بل جمع بين خاصيتين تتميز بها الواو والياء غير المديتين، فهما نصف صوت أي افتقدتا نصف كمية الصوت التي تمنحهما صفةَ المدّ، لكنّهما لم تفتقدا ليونتهما لأنّهما واو وياء.

ومن خلال تحليل مفهوم كمية الصوت عند إبراهيم أنيس نستنتج فهم بعض المحدثين الخاطئ لمفهوم الحركة الطويلة عنده؛ لأنّ مبدأ الطول والقصر في كمية الصوت لا يعني أبدا اعتبار المدود حركات، وهذا الاعتبار إذا وسّعنا دائرة تفعيله في الدرسين النحوي والصرفي فسوف نحدث قطيعة بين التراث والحداثة رغم أنّ إبراهيم أنيس يتخذ من أراء القدامى – خاصة أراء ابن جني في كتابه صناعة الإعراب – وسيلة فاعلة في شرحه لطبيعة أصوات المدّ؛ حيث استطاع أن يزاوج بين مكتسبات الدرس الصوتي الحديث وتراثنا

الصوتي بطريقة علمية موضوعية تستوعب طبيعة الأصوات في اللغة العربية.

الخاتمة:

يمكن أن نلخص في نهاية هذا العرض أهمّ التناقضات التي وقع فيها المحدثون الذين اعتبروا المدود حركات طويلة:

1. ، لا يمكن الجمع بين متناقضين " المدّ والقصر"؛ إذن لا يوجد مدّ قصير

2. لا يمكن اعتبار حروف المدّ حركات طويلة، لأنّ مصطلح الحركة ربطه القدامى بالصامت الذي ارتبطت به في النطق لكنّ حرف المدّ لم يحرّك الصامت بل زاد في كميّة الصوت فهو صوت قائم بذاته يصوّت به الناطق بعد نطق الصامت المتحرك، وقد تعامل أهل اللغة في تراثنا مع هذه الأصوات على أنّها سواكن.

3. إنّ تحريك أصوات المدّ يخرجها إلى دائرة أنصاف أصوات اللين في حال الواو والياء والتي لها خصوصيتها، أمّا تحريك الألف المديّة يخرجها من دائرة المدود ويجعلها همزة.

4. الفراغات الواضحة في تناول المحدثين لطبيعة هذه الأصوات في الدرس الصوتي راجعة لفهمهم القاصر لمبدأ كميّة الصوت الذي جعله إبراهيم أنيس قاعدة في تحليله لطبيعة الحركات وأصوات المدّ.

5. قول إبراهيم أنيس بـ "الفتحة الطويلة، والضمّة الطويلة والكسرة الطويلة" لا يعني أبدا اعتبار المدود حركات، لأنّ أصوات المدّ حروف والحركات أبعاض حروف المدّ، ولا يمكن إدراج الأصل في الفرع الذي يمثّل جزءا منه.

ونخلص في نهاية بحثنا إلى أنّ القدامى كانوا على وعي تام بخصوصية أصوات المدّ وكيّفوا حسب طبيعتها قواعدهم النحوية والصرفية، لكنّ أراء المحدثين في طبيعة المدود وقولهم في الدرس الصوتي بأنّها حركات طويلة لا يتوافق والمبادئ العامّة لقواعد اللغة في تراثنا، ولو سلّمنا بهذا الرأي فسوف نوسّع مساحة التأويلات غير المبررة والطروحات غير الممنهجة، ونلغي بالضرورة مبدأ التكامل بين مستويات الدرس اللغوي من صوت وصرف ونحو، وهو مبدأ هامّ يقرّ به العلم الحديث، وإذا افتقدناه في حقل البحث اللغوي عند المحدثين فسوف نضحي بمعيار هامّ تقاس به علمية البحوث اللسانية في هذا العصر.

هوامش وإحالات:

1- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج1، ص:41.

2- سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمّد هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988، ج4، ص:433.

3- ينظر الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج1، ص:41.

4- ابن جني، سر ّصناعة الإعراب، تح: محمّد حسن إسماعيل وأحمد رشدي عامر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000، ج1، ص21:.

5- المصدر نفسه، ج1، ص:33.

6- المصدر نفسه، ج1، ص:33.

7- المصدر نفسه، ج1، ص:21.

8- المصدر نفسه، ج1، ص:35.

9- المصدر نفسه، ج1، ص:43.

10- كمال بشر، علم الأصوات، دط، دار غريب، القاهرة، 2000، ص :18.

11- المرجع نفسه، ص:19.

12- المرجع نفسه، ص:19.

13- غالب فاضل المطلبي، دراسة في الأصوات اللغوية – دراسة في أصوات المدّ العربية – ، دط، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ص: 05.

14- المرجع نفسه، ص:08.

15- المرجع نفسه، ص:07.

16- ينظر المرجع نفسه، ص:08.

17- ابن جني، سر صناعة الإعراب، ص:45.

18- عبد الصبور شاهين، المنهج الصوتي للبنية العربية – رؤية جديدة في الصرف العربي – دط، مؤسسة الرسالة، بيروت،1980، ص:16.

19- المرجع نفسه، ص:17.

20- المرجع نفسه، ص:20:18.

21- ابن جني، سر صناعة الإعراب، ص:33.

22- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، دط، مطبعة نهضة مصر، مصر، ص:40:39.

23- ينظر ابن جني، سر صناعة الإعراب، ص:43.

24- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص:40.

25- ينظر غالب فاضل المطلبي، دراسة في الأصوات اللغوية، ص:05.

قائمة المصادر والمراجع:

1- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، د ط، مطبعة نهضة مصر، مصر.

2- ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، تح: محمّد حسن إسماعيل وأحمد رشدي عامر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000.

3- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

4- سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمّد هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988.

5- عبد الصبور شاهين، المنهج الصوتي للبنية العربية – رؤية جديدة في الصرف العربي – د ط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1980.

6- غالب فاضل المطلبي، دراسة في الأصوات اللغوية – دراسة في أصوات المدّ العربية –، د ط، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق.

7- كمال بشر، علم الأصوات، د ط، دار غريب، القاهرة، 2000.